## الفصل الأول

# ما هي العناية الإلهيَّة؟

في أحد الأيام فيما كنت أشاهد برنامجًا إخباريًا، ظهر إعلان تجاري لسلسلة من الكتب عن مشاكل الحياة في الماضي. صوَّرَت إحدى الصور في الإعلان التجاري أحد جنود الكونفدراليَّة من زمن الحرب الأهليَّة، راقدًا على مِحَفَّة ويتلقَّى العناية من إحدى الممرضات وأحد الأطباء في ساحة المعركة. عندئذ قال الراوي إن قراءة هذا الكتاب سوف تساعدني على فهم ماذا كان يعني أن يكون المرء مريضًا في منتصف القرن التاسع عشر. جذب ذلك انتباهي، لأن كثيرين من القرن الحادي والعشرين مقيَّدون بهذا الزمان لدرجة أنهم نادرًا ما يفكرون كيف عاش الناس حياتهم اليومية في العصور والأجيال السابقة.

هذا مجال وجدت نفسي لا أتماشى فيه مع معاصريَّ. فأنا أفكر في حياة الأجيال السابقة كثيرًا جدًا، لأني معتاد على قراءة الكتب التي كتبها أشخاص عاشوا، في كثير من الحالات، قبل القرن الحادي والعشرين بكثير. أحب أن أقرأ على وجه الخصوص لمؤلفي القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر.

في كتابات هؤلاء المؤلفين ألحَظ باستمرار وجود شعور ثاقب بحضور الله. كان لدى هؤلاء الرجال شعور بوجود عناية إلهية شاملة. نرى مؤشرًا للشعور بأن كل الحياة واقعة تحت توجيه وتدبير وحكم الله القدير، في حقيقة أن واحدة من أولى المدن التي أُنشئت فيما يُعرف الآن بالولايات المتحدة الأمريكيَّة تُدعى «بروفيدانس» *Providence*، [أي العناية الإلهيَّة]، في رود آيلاند (تأسَّست عام ١٦٣٦). بالمثل، نرى كلمة العناية تتخلَّل المراسلات الشخصية لرجال من قرون سابقة، مثل بنجامين فرانكلين

وجـون آدامـز. تكلـم النـاس عـن «عنايـة الله المحسـنة» أو «عنايـة الله الغاضبـة»، ولكـن كثيـرًا مـا كان هناك شـعور بـأن الله منخـرط بصـورة مباشـرة في حيـاة النـاس اليومية.

لكــن الوضــع مختلــف بشــكل شاســع فــي أيامنــا. اعتــاد صديقــي الراحــل جيمــس مونتجمــري بويــس (James Montgomery Boice)، أن يحكـيَ قصـة فكاهيَّـة توضِّـح ببراعـة العقليَّـة الحاليـة مـن ناحيـة الله وتدخُّلـه فـي العالـم. كان هنـاك متسـلِّق جبـال انزلـق مـن علـى نتـوء صخـري وكان علـى وشـك أن يهـوي لمسـافة آلاف مـن الأقـدام ليلقـى حتفـه. ولكـن فيمـا بـدأ يسـقط، أمسـك بفـرع صغيـر لشـجرة هزيلـة كانـت تنمـو خارجـة مـن شـق علـى وجـه الجـرف. وحيـن تعلَّـق بالفـرع، بـدأت جـذور الشـجرة الهزيلـة تنخلـع، وكان المتسلق يواجـه موتًـا مؤكدًا. فـي هـذه اللحظـة، صـرخ إلـى السـماء: «هـل هنـاك أي شــخص فــي الأعلــى يمكنــه أن يســاعدني؟» وردًّا

على سؤاله، سمع صوتًا جهوريًّا من السماء يقول له: «نعم، أنا هنا وسأساعدك. اترك الغصن وثق بي». نظر الرجل إلى السماء ثم عاد بنظره إلى أسفل نحو الهوة. وأخيرًا، رفع صوته مرة أخرى وقال: «هل يوجد شخص آخر في الأعلى يمكنه أن يساعدني؟»

أحب هذه القصة، لأنني أظن أنها تصوِّر العقليَّة الثقافيَّة السائدة في وقتنا الحاضر. أولًا، يسأل المتسلِّق: «هل هناك أي شخص في الأعلى؟» افترض معظم الناس في القرن الثامن عشر أنه كان هناك شخصٌ ما بالأعلى. كان يوجد شك بسيط في عقولهم أن الخالق القدير هو الذي يحكم شؤون الكون. لكننا نعيش في فترة من التشكيك غير المسبوق حول وجود الله ذاته. نعم، تخبرنا استطلاعات الرأي بانتظام أنه ما بين ٩٥٪ إلى ٩٨٪ من الناس في الولايات المتحدة الأمريكيَّة يؤمنون بنوعٍ ما من الآلهة أو بقوة عُليا. أظن أنه

يمكـن تفسـير هـذا جزئيًـا علـى أنـه مـن تأثيـر التقليـد؛ فمـن الصعـب التخلِّـي عـن أفـكار كانـت ثمينـة لـدى النـاس لمـدة أجيـال. وفـي ثقافتنـا، لا تـزال هنـاك وصمـة عـار اجتماعيـة معينـة مرتبطـة بالإلحـاد الجامـح. كذلـك، أعتقـد أنـه لا يمكننـا التهـرُّب مـن منطـق افتـراض حتميَّـة وجـود نـوع مـن العِلَّـة الأساسـية والنهائيـة لهـذا العالـم بالصـورة التـي نختبـره بهـا. ولكـن عـادةً عندمـا لا نـدع أمـام النـاس مجـالًا للتهـرُّب ونبـدأ نتكلـم معهـم عـن فكرتهـم عـن «القـوة العليـا» أو «الكائـن الأسـمى»، يتبيَّـن أن هـذا مجـرد مفهـوم يميلـون لأن يتكلمـوا عنـه بصفـة غيـر العاقـل وليـس كشـخص ـ نـوع مـن الطاقـة أو القـوة غيـر المحـددة. وهـذا هـو سـبب سـؤال المتسلِّق: «هـل هنـاك أي شـخص بالأعلـى؟» فـي هـذه اللحظـة، فـي وسـط أزمتـه، أدرك حاجتـه لكائـن شـخصي مسـؤول عـن الكـون.

هناك جانب آخر لهذه القصة الطريفة أعتقد إنه ذو دلالة هامة. عندما كان المتسلِّق على وشك السقوط والموت، لم يسأل ببساطة: «هل هناك أي شخص بالأعلى؟» بل حدد كلامه: «هل هناك أي شخص بالأعلى يمكنه أن يساعدني؟» هذا هو سؤال الإنسان العصري؛ يريد أن يعرف ما إذا كان هناك أي شخص خارج دائرة الحياة اليومية يقدر أن يقدِّم له العون. لكنني أعتقد أن المتسلِّق كان يسأل سؤالًا جوهريًا أكثر. لم يُرِد أن يعرف فقط ما إذا كان هناك شخص يمكنه أن يساعد، بل ما إذا كان هناك أي شخص يريد أن يساعد. هذا هو السؤال الرابض في المقام الأول في عقول الرجال والنساء في العصر الحديث. بكلمات أخرى، هم لا يريدون أن يعرفوا فقط ما إذا كانت هناك عناية إلهية، بل وما إذا كانت باردة ولا تشعر أم طيبة وحنونة.

لذا، فالسؤال عن العناية الإلهية الذي أريد التأمُّل فيه في هذا الكتيِّب ليس فقط عما إذا كان أي شخص هناك،

بل عما إذا كان هذا الشخص الذي هو هناك قادرًا ويريد أن يفعل أي شيء في هذا العالم الذي نعيش فيه.

## كَوْنٌ ميكانيكيٌّ مُغلَق

من بين الأفكار التي شكَّلت الثقافة الغربيَّة، نجد أن واحدة من أهمها هي فكرة الكون الميكانيكي المغلق. استمرت هذه النظرة عن العالم لمدة قرنين من الزمان وكان لها تأثير هائل في تشكيل طريقة فهم الناس للطريقة التي يحيون بها حياتهم. أود أن أجادل بأن في العالم العلماني، الفكرة السائدة هي أننا نعيش في كون مغلق في وجه أي نوع من التدخُّل الخارجي، كون يسير وفق قوى وأسباب ميكانيكيَّة بحتة. باختصار، المسألة بالنسبة للإنسان العصري هي السببيَّة.

يبدو أن هناك صرخة تزداد علوًّا بشأن التأثير السلبي للدين على الثقافة الأمريكيَّة. يُعتقد أن الدين هو القوة التي تُبقي الناس مُحاصَرين في عصور الخرافات المظلمة،

وتُبقي عقولهم مغلقة أمام أي فهم لحقائق العالم التي كشف عنها العلم. يبدو أن الدين يُنظر إليه أكثر فأكثر على أنه النقيض التام للعلم والمنطق. ويبدو الأمر كما لو أن العلم شيء للعقل والبحث والذكاء، أما الدين فشيء للعواطف والمشاعر.

ومع هذا لا يزال هناك تسامح مع الدين. كثيرًا ما يتم التعبير عن الفكرة في نشرات الأخبار أن لكل شخص الحق في أن يؤمن بما يختار هو (أو هي) أن يؤمن به؛ الأمر الرئيسي هنا هو الاعتقاد بشيء. لا يهم ما إذا كنت يهوديًا، أو مسلمًا، أو بوذيًا، أو مسيحيًا.

عندما أسمع تعليقات مثل هذه، أود أن أصرخ: «هل يهمنا الحق بأي شكل؟» الأمر الرئيسي، بحسب رأيي المتواضع، هو أن نؤمن بالحق. لن أرضى بمجرد الإيمان بأي شيء لمجرَّد الإيمان فحسب. إن كان من أؤمن به غير حقيقي ـ إن كان خرافيًّا أو وهميًّا ـ فأنا أريد أن أتحرَّر

منـه. لكـن يبـدو أن أسـلوب تفكيـر زمننـا هـو أنـه فـي أمـور الديـن، ليـس الحـق ذا أهميـة. لأننـا نتعلَّـم الحـق مـن العلـم، لكننـا نحصـل علـى مشـاعر جيَّـدة مـن الديـن.

أحيانًـا تُطـرح فكـرة شـديدة التبسـيط مفادهـا أن الخرافـات الدينيـة سـادت بشـكل فائـق فـي الماضـي، لـذا كان الله يُـرى علـى أنـه سـبب لـكل شـيء. إن أصبـح الشـخص مريضًـا، كان المـرض يُنسـب لله. الآن، بالطبع، يُقـال لنا أن الأمراض تأتـي بسـبب كائنـات دقيقـة تغـزو أجسـادنا، وهـذه الكائنـات الدقيقـة تعمـل بحسـب طبيعتهـا، إذ تقـوم بمـا تطـوَّرت لتقـوم بـه. بالمثـل، فـي حيـن أن النـاس فـي الأيـام الأولـى كانـوا يعتقـدون أن الـزلازل أو العواصـف الرعديَّـة كانـت تحـدث بفعـل تدخـل الله، اليـوم نحـن متأكـدون مـن وجـود أسـباب طبيعيَّـة لهـذه الأحـداث. فهـي تحـدث بسـبب قـوى تُعَـدُّ جزءًا مـن الترتيـب الطبيعـي للأشـياء.

في القرن الثامن عشر، كُتب كتاب أصبح من كلاسيكيَّات النظريَّة الاقتصاديَّة الغربيَّة ـ «ثروة الأمم» (*The Wealth of Nations*)، بقلم آدم سميث (Adam Smith). في هذا الكتاب، حاول سميث تطبيق المنهج العلمي في مجال الاقتصاد في محاولة لاكتشاف أسباب الاستجابات الاقتصاديَّة المعينة وردود الفعل المضادة في السوق. أراد سميث أن يقطع الطريق على التخمين ويحدِّد الأسباب الأساسيَّة التي تُنتج آثارًا يمكن التنبؤ بها. ولكن فيما كان يطبِّق هذا البحث العلمي على شبكة الأفعال وردود الفعل الاقتصادية المعقَّدة، تكلم عن «اليد الخفية». بكلمات أخرى، كان سميث يقول: «نعم، هناك أسباب وآثار تقع في هذا العالم، ولكن علينا أن ندرك أنه قبل كل شيء يجب أن تكون هناك قوة سببيَّة مطلقة، وإلَّا فلن تكون هناك قوى سببيَّة نسبيَّة. وهكذا، يتم تنظيم الكون كله بفعل يد الله الخفية». لكن، في أيامنا، ركَّزنا بكل اهتمام

علــى فعاليــة الســبب والنتيجــة المباشــرة، لدرجــة أننــا تجاهلنــا أو أنكرنــا معظــم الوقــت القــوة الســببية الشــاملة الكامنــة وراء الحيــاة كلهــا. فــي الأســاس، الإنســان المعاصــر ليــس لديــه أي مفهــوم عــن العنايــة الإلهيَّــة.

## الله الذي يرى

تعــد عقيــدة العنايــة الإلهيــة واحــدة مــن أروع وأهــم وأصعــب العقائــد فــي الإيمــان المســيحي. فهــي تتعامــل مــع أســئلة صعبــة، مثــل: «كيــف تتفاعــل قــوة الله الســببية وسـلطانه مـع قوانـا؟» «مـا علاقـة تدبير الله صاحب السـيادة باختياراتنـا التـي نقـوم بهـا بحريتنـا؟» «مـا علاقـة حكـم الله بالشـر والألـم الموجـودان فـي هـذا العالـم؟» و«هـل للصـلاة أي تأثيـر علـى قـرارات عنايـة الله؟» بكلمـات أخـرى، كيـف ينبغـي أن نعيـش حياتنـا فـي ضـوء عمـل يـد الله الخفيـة؟

دعونــا نبــدأ بتعريــف بســيط. تبــدأ كلمــة العنايــة الإلهيَّــة فــي اللغــة الإنجليزيَّة، providence، ببادئــة pro، والتي تعني

«قبل» أو «أمام». ويأتي جذر الكلمة من الفعل اللاتيني *videre*، والذي يعني «يرى»؛ ومن هذه الكلمة نحصل على كلمتنا الإنجليزيَّة «فيديو» (*video*). وهكذا تعني كلمة *providence* حرفيًّا «يرى مُسبقًا». تشير عناية الله إلى سبق رؤيته للشيء بالنسبة للزمن.

والعناية ليست هي نفسها سبق معرفة الله أو سبق علمه. سبق المعرفة هو قدرته على النظر عبر أروقة الزمن ومعرفة نتيجة فعل معين قبل أن يبدأ. ولكن، من المناسب أن نستخدم كلمة العناية بالإشارة إلى حكم الله العامل في الكون، لأنه بالفعل الله الذي يرى. إنه يرى كل شيء يحدث في الكون. وكل ما يحدث في الكون واقع تحت بصر عينيه بشكل كامل.

يمكن أن تكون هذه واحدة من أكثر الأفكار إثارة للفزع التي ترد على فكر واحد من البشر - أن يكون هناك شخص، كما رثا جان بول سارتر

(Jean-Paul Sartre)، هو المتلصِّص الكوني المطلق الذي ينظر من خلال ثقب المفتاح السماوي ويلاحظ كل عمل صادر من كل إنسان. إذا كان هناك أي شيء في صفات الله ينفر الناس عنه أكثر من قداسته، فهو كونه كليِّ العلم (المعرفة). لدى كل واحد منا رغبة شديدة في الشعور بالخصوصيَّة التي لا يقدر أحد أن يخترقها حتى ينقب في أمور حياتنا السريَّة.

في وقت وقوع أول تعدٍّ، عندما دخلت الخطية إلى العالم، اختبر آدم وحواء على الفور شعورًا بالعري والخجل (تكوين ٣: ٧). وقد كانت ردة فعلهما محاولة الاختباء من الله (الآية ٨). لقد اختبرا تحديق عينَيْ إله العناية. مثل متسلِّق الجبال في القصة التي ذكرتها من قبل، نريد أن ينظر إلينا الله عندما نحتاج إلى العون. لكن معظم الوقت نريده أن يتغاضى عنا، لأننا نريد الخصوصيَّة.

في واحدة من المناسبات التي لا تُنسى أثناء خدمة ربنا، جرَّ الكتبة والفريسيُّون إلى محضر الرب يسوع امرأة أمسكوا بها متلبِّسة بالزنى. ذكَّروه بأن ناموس الله طالب برجمها، لكنهم أرادوا أن يعرفوا ماذا كان ليفعل. ولكن فيما كانوا يتكلَّمون، انحنى إلى أسفل وكتب شيئًا ما على الأرض. هذا هو الموقف الوحيد المُسجَّل فيه أن يسوع كتب، ولا نعرف ماذا كتب. ولكن يخبرنا الكتاب أنه انتصب وقال: «**مَن كَانَ مِنْكُمْ بِلاَ خَطِيَّةٍ فَلْيَرْمِهَا أَوَّلًا بِحَجَرٍ!**» (يوحنا ٨: ٧). ثم بدأ يكتب على الأرض ثانيةً. عند هذه اللحظة، أخذ الكتبة والفريسيُّون في الانصراف، واحدًا تلو الآخر.

إنني أخمن هنا متسائلًا عما إذا كان يسوع قد كتب بعضًا من الخطايا السرية التي كان لدى هؤلاء الرجال الشغف ليبقوها مكتومة. ربما كتب «الزنى»، وقرأها واحد من الرجال وقد كان غير أمين لزوجته فتسلل

مبتعدًا. ربما كتب «التهرب الضريبي»، وقرأها واحد من الفريسيين ممن فشلوا في إعطاء ما لقيصر لقيصر فقرر أن يتوجه إلى بيته. لدى يسوع، في طبيعته الإلهية، القدرة على أن يرى مخترقًا ما وراء الأقنعة التي يرتديها الناس، وأن يصل إلى مخابئهم حيث يكونون في أضعف حالاتهم. هذا جزء من مفهوم العناية الإلهيَّة. حيث إنها تعني أن الله يعرف كل شيء عنا.

كما أشرت أعلاه، كثيرًا ما نجد هذه البصيرة الإلهية أمرًا مزعجًا، مع أنه ينبغي أن يكون مفهوم رؤية الله، وكون الله يرانا، أمرًا معزيًا ومشجعًا لنا. قال يسوع: «**أَلَيْسَ عُصْفُورَانِ يُبَاعَانِ بِفَلْسٍ؟ وَوَاحِدٌ مِنْهُمَا لاَ يَسْقُطُ عَلَى الأَرْضِ بِدُونِ أَبِيكُمْ**» (متى ١٠: ٢٩). أَلْهَمَ هذا التعليم بالترنيمة المشهورة «يقوت كل طير» (His Eye Is on the Sparrow). هل تذكر أبياتها؟

«يقوت كل طير وكذا يهتم بي».[1] أعتقد أن كاتب هذه الترنيمة قد فهم ما كان يسوع يقوله ـ أن الله يعرف كل مرة يقع فيها طائر صغير إلى الأرض. الله لا يتغاضى حتى عن أبسط تفصيلة في الكون. بل، إنه يسود على الكون بوعي تام بكل شيء يحدث فيه.

نعم، يمكن أن يكون هذا النوع من المعرفة مُخيفًا. لكن لأننا نعرف أن الله منعم ومهتم، تصبح معرفته الشاملة تعزيةً لنا. فهو يعرف ما نحتاج إليه قبل أن نسأله. وعندما تظهر احتياجاتنا، فهو قادر ويريد أن يساعدنا. بالنسبة لي، ما من شيء معَزٍ أكثر من معرفة أنه يوجد إله العناية الذي هو على دراية ليس فقط بكل سقطة من تعدياتي بل وكل دمعة من دموعي، وكل ألم من آلامي، وكل واحدة من مخاوفي.

---

[1] من ترنيمة «يقوت كل طير» بقلم سيفيليا دي مارتن، Civilla D. Martin، وتشارلز هـ. جابرييل، Charles H. Gabriel، وقد كتباها في عام ١٩٠٥.